تاريخ تدوين البلاغة وعوائق تعليمها

سعيد بوخاوش
جامعة البليدة 2 - الجزائر

الملخّص

كانت اللغة ملكة راسخة على ألسنة العرب تمكنهم من التعبير الفصيح العفوي، بعيدا عن الصناعة اللغوية، وكان الأوائل يرون أن اللغة العربية للعرب بالطبع والقوة؛ ولكن هذه الملكة والسليقة والسجية اللغوية عند العرب بدأت تتلاشى بعد القرن الرابع الهجري، فظهرت حركة التأليف في كل علوم العربية بما فيها علوم البلاغة، وهذا القال يتناول جملة من المظاهر والعوائق التي ميزت المنظومة التأليفية في تعليمية البلاغة، أوردتها في محورين رئيسيين هما الجانب التاريخي لتطور التأليف في البلاغة ثم المعوقات الأساسية التي تحول دون حصول الذوق اللغوي عند المتعلم وحاجة "تعليمية اللغة" اليوم إلى إعادة النظر في تحقيق الملكة.

■ Résumé ■

La langue était un patrimoine bien ancré chez les premiers arabes, qui leur permettait de s'exprimer spontanément dans un langage soutenu loin de tout maniérisme, et la considérait comme étant la leur de par sa nature et par sa force. Mais cette maitrise, cette « innéité » de la langue a commencé a ce dissiper après le 4ème siècle de l'hégire, ce quia mené à l'apparition d'un mouvement d'édition dans toutes les sciences de la langue y compris la rhétorique. Ce présent article traite d'un ensemble d'aspects et d'entraves notables dans le système éditorial de la didactique de la rhétorique, et qui sont exposés selon deux axes principaux : le côté historique de l'évolution éditoriale en rhétorique et les obstacles majeurs qui font en sorte d'empêcher l'apparition d'un goût pour la langue chez l'apprenant d'où la nécessité aujourd'hui pour«la didactique de la langue » de revoir ce que l'on entend par la maitrise de la langue.

1. الحاجة إلى تدوين علوم اللغة

من المعلوم أن اللغة كانت ملكة راسخة على ألسنة العرب تمكنهم من التعبير الفصيح العفوي، بعيدا عن الصناعة اللغوية، وكان الأوائل يرون أن اللغة العربية للعرب بالطبع والقوة[1]؛ ولكن هذه الملكة والسليقة والسجية اللغوية عند العرب بدأت تتلاشى بعد القرن الرابع الهجري، وذلك لمخالطة العرب العجم المستعربين، ولتأثر البيئة العربية بلغات أخرى «فصار الناشئ من الجيل يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضا، فاختلط عليه الأمر، وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة، وكانت ناقصة عن الأولى، وهذا معنى فساد البيان العربي»[2].

ومن هذا المنطلق حاول الغيورون على اللغة جمعها وتدوينها، ووضعوا لها شروطا ومقاييس دقيقة، محددة زمانا ومكانا .. ورغم ذلك لم يستطيعوا الحد من تطور اللسان العربي، فظهرت بذلك لغات خاصة بالحواضر كمرحلة أولى من التحول اللغوي.

ثم بدأت العجمة تصل اللغة وظهرت اللهجات المحلية في الأقطار العربية إلى غاية عصر المؤلف.

2. أهمية البلاغة

من نافلة القول هنا أن أذكِّر بوظائف اللغة كونها وعاء للثقافة، وأداة الاتصال والترابط بين الأفراد والجماعات، ووسيلة التعبير عن الأفكار والمشاعر ..

وتأتي البلاغة لتحقق بعضا من وظائف اللغة العربية لدى الطلاب، فهي مادة تكشف للطلاب عن دقائق اللغة العربية وأسرارها وتنمي

فيهم حاستي التذوق والنقد، والقدرة على المفاضلة بين الأساليب؛ لذا فلعلم البلاغة أهمية كبيرة في تعليمية اللغة العربية، فالبلاغة هي العلم الذي يضع الأسس الجمالية لتذوق الأدب الجيد، لما تقوم به من الكشف عن القوانين العامة التي تتحكم في الاتصال اللغوي، فهي تقوِّم الملكات، وترشد الذَّوق وتهدي الموهبة الأدبية في نفس المبدع بجانب أنها تساهم في نظم الكلام بصورة صحيحة.

كما تعد البلاغة أحد العلوم الأساسية في علم اللغة، ولها دورها الأساسي في إدراك المعنى وفهمه، فهي تعيننا عل بناء المعاني الكامنة في نفوسنا في أحسن صورة.

إن الغرض من تدريس البلاغة والبيان يتجلى في تمكين الناشئة من استعمال اللغة في نقل أفكارهم إلى غيرهم بطريقة تسهل عليهم إدراكها وتمثلها، وذلك من خلال فهم خصائص البيان وإدراك ما فيها من جمال.

إن دراسة البلاغة تساعد المرء على فهم أسرار البلاغة القرآنية، ومواطن الإعجاز في القرآن الكريم، وذلك من جهة حسن التأليف وبراعة التركيب، وما يتضمنه من إيجاز بديع واختصار لطيف، وما فيهمن حلاوة، وسهولة كلام، وعذوبة وسلاسة إلى غير ذلك من محاسنه، و ليست للبلاغة أهداف دينية فقط، وإنما لها أهداف نقدية تتمثل في التذوق والوقوف على أسرار الكلام، وتميز بين الجيد والرديء من منثور الكلام ومنظومه، ولها هدف نقدي ينعكس على صناعة الأدب والتأليف فيه .

وفي هذا المقال لا أتطرق لماهية البلاغة وتعريفها في اللغة والاصطلاح، وعلاقتها بالبيئة العربية، والقرآن والحديث والتراث، والكلام عن وصف البليغ عند العلماء، وحاجة العرب للبلاغة، ومفهوم

الإعجاز .. فهذه المسائل وغيرها موجودة في كتب النقد والبلاغة؛ ولكن سأخصصه للحديث عن نشأة البلاغة ومراحل التأليف فيها، لأبين ثراء المكتبة البلاغية من جهة ومعوقات التدريس من جهة ثانية.

3. نشأة البلاغة العربية ومراحل التأليف فيها

• نشأة البلاغة العربية

نشأت البلاغة بشكل فطري في العصر الجاهلي، وتناولها العرب بفطرتهم الصافية وسليقتهم العربية، وأكدت ذلك ما احتوته كتب الأدب والنقد، وقد انتشرت الأسواق الأدبية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان الشعراء يترددون عليها، فيتبارون بالشعر فيما بينهم في هذه المجالس الأدبية ثم يحتكمون فيما بينهم، فكانت فنون الأدب هذه وما يدور حولها من ملاحظات عديدة هي البذور الأولى في حقل البلاغة العربية[3].

ثم جاء الإسلام ، فكان للقرآن الكريم الأثر الكبير في ظهور البلاغة بهذا الشكل عند العرب، وإذا كان القرآن من العوامل ذات الفائدة في ظهور البلاغة بهذا الشكل، فإن الحديث النبوي هو الآخر كان من الروافد الأساسية من حيث الاعتناء به باعتباره مصدرا من مصادر التشريع[4].

وهناك أسباب أخرى لها دورها في إثارة هذا النشاط البلاغي وظهوره، فقد كان للاطلاع على ثقافات الأمم الأخرى وآدابها كالهند واليونان وبلاد فارس .. الأثر الملموس في هذا الظهور، إذ تركت حركة الترجمة هذه أهمية جليلة في حياة البلاغة العربية[5].

ومن المعلوم أن العهد العباسي شهد صراعات نشبت في القرن الثاني الهجري بين أنصار المحافظة والتجديد، ومن آثار هذه الصراعات ظهور مصنفات كثيرة ذات فائدة كبيرة في البلاغة العربية، كسرقات أبي نواس، وبديع ابن المعتز وموازنة الآمدي، ووساطة القاضي الجرجاني..

• **مراحل التأليف في علم البلاغة وأهم المصنفات** [6]

1- كان القرن الثاني الهجري أول عصر شهد نشأة آراء كثيرة أصيلة ومترجمة حول البلاغة وعناصرها، بعد فساد الملكات، وقد أخذ العلماء في بحث أصول بلاغات العرب، وفي تدوين آرائهم في معنى كلمة البلاغة والفصاحة. وأهم ما يؤثر من ذلك :

وصية بشر بن المعتمر - من زعماء المعتزلة وتوفي نحو عام 210 هـ - في البلاغة، وتفسير ابن المقفع للبلاغة، وتعريف العتابي لها، ووصية أبي تمام للبحتري تدخل في هذا الباب، ويقول البحتري : «خير الكلام ما قل ودل ولم يمل ..» وفي البيان والتبيين للجاحظ تحديد للبلاغة كما يراها حكيم الهند، ويقسمها الكندي فيلسوف العرب المتوفى عام 260 هـ إلى ثلاثة أنواع : «فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به، ونوع بالعكس، ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها» وذكر بزر جمهر حكيم الفرس فضائل الكلام ورذائله في كلمة مترجمة رواها صاحب الموازنة. إلى آخر هذه الكلمات والآراء.

2- ثم ألفت بعد ذلك كتب تجمع كثيرا من الآراء والدراسات الموجزة حول البلاغة وبحوثها، ومن هذه الكتب : مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت : 207 هـ) والفصاحة للدينورى (ت : 280 هـ) والتشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت، وصناعة الكلام للجاحظ، ونظم القرآن والتمثيل له أيضا، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد .. وفي الكامل إشارات لمسائل كثيرة في البلاغة، وكذلك الرسالة العذراء لابن المدبر، والبلاغة للحراني، وقواعد الشعر لثعلب وعليه شروح كثيرة، والبلاغة والخطابة للمروزي، والمطابق والمجانس لابن الحرون وتهذيب الفصاحة لأبي سعيد الأصفهاني، وإعجاز القرآن في نظمه وتأليفه للواسطي المعتزلي (ت : 306 هـ)، وصنعة البلاغة للسيرافي(ت : 368 هـ). ونظم القرآن لابن الإخشيد، وكذلك لابن أبي داود (ت 316 هـ) وكتاب الرد على من نفى

المجاز في القرآن للحسن بن جعفر ... ومن هذه الكتب أيضا المفصل في البيان، والفصاحة للمرزباني (ت : 378 هـ).

على أن أهم الكتب التي تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث، أو التي ألفت فيها خاصة هي : كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، ففي مقدمته بحوث موجزة طريفة تتصل بالبلاغة. وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وهو أهم ما ألف في هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا وشعرا، وتتعرض لتحديد البلاغة وما حولها من آراء كانت ذائعة في عصر الجاحظ، وفيه كثير من بحوث البلاغة، فهو يعرف الاستعارة ويتكلم على السجع ويشير إلى التفصيل والتقسيم والاستطراد والكناية والأمثال والاحتراس والقلب والأسلوب الحكيم. والجاحظ أول من تكلم على المذهب الكلامي ويرى البلاغة في النظم لا في المعاني وهو ما ذهب إليه ابن خلدون، والجاحظ يشيد بالإيجاز، كما يدعو في البيان كثيرا إلى ترك الوحشي والسوقي، ويحث على الإفهام والوضوح، وعلى ترك التعمق والتهذيب في صناعة الكلام، إلى غير ذلك من شتى ما دونه في البيان .. ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال، فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان، وهي التي أوحت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان. ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ في البيان.

3- وقد بدأ التدوين في البلاغة على يد ابن المعتز الذي ألف كتابه القيم "البديع" حيث كانت البلاغة قبله تختلط بغيرها من العلوم حيث يواجه من يبحث في البلاغة أو يسعى إلى تعلمها المشقة الكبيرة وحال ذلك بينه وبين تذوق البلاغة تذوقا أدبيا.

ثم ثعلب الذي ألف كتابه "قواعد الشعر"، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام 337 هـ. ثم كتاب

الصناعتين لأبي هلال المتوفى عام 395 هـ ، ثم كتاب الموازنة للآمدي، والوساطة للجرجاني، وإعجاز القرآن للباقلاني، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، والعمدة لابن رشيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة.

4- ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة العربية والمتوفى عام 471 هـ فألف في البلاغة كتابين جليلين هما :

- أسرار البلاغة، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع.
- دلائل الإعجاز، وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني. كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضا.

«وليس هناك اختلاف عند البلاغيين على أن البلاغة حققت أوج ازدهارها وقوتها على يد الشيخ الجرجاني، ولكنها أصيبت بالقصور والضعف على يد علماء غير أدباء اهتموا أكثر ما اهتموا في قواعد اللغة والتعريف بمصطلحاتها من دون تركيز على الذوق الأدبي السليم لذا أصبحت البلاغة على يد هؤلاء خالية من الأصالة.»[7].

5- وبعد عصر الجرجاني بحث الزمخشري في تفسيره، والرازي في كتابه "نهاية الإعجاز"، وابن الأثير صاحب المثل السائر، وبدر الدين بن مالك صاحب المصباح، والتنوخي صاحب "الأقصى القريب"، وكثير من العلماء في البلاغة والفصاحة.

ومن أهم هؤلاء العلماء في هذا الطور أبو يعقوب السكاكي المتوفى عام 626 هـ تلميذ الحاتمي، الذي ألف كتابه "المفتاح"، وجعله أقساما وخص البلاغة بالقسم الثالث منه، وقسمها إلى ثلاثة أقسام : المعاني - البيان - البديع. وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل.

وتغلب الفلسفة والمنطق على السكاكي إلى حد كبير، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر.

وبذلك تنتهي مراحل التأليف والابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها تدوينا كاملا.

6- وجاء الخطيب القزويني المتوفى عام 739 هـ فألف في البلاغة كتابيه : تلخيص المفتاح والإيضاح. وقد ألف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح.

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي والتقارير وفي مقدمتها الأطول للعصام، والمطول للسعد وشروح التلخيص وسواها ... وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها في هذا العهد:

قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادي(ت: 629 هـ)، والتبيان لابن الزملكاني (ت :651 هـ)، والمعيار للزنجاني (ت:654 هـ)، وبديع القرآن لابن أبي الأصبع (ت : 654 هـ)، والفوائد الغياثية للعضد (ت : 756 هـ) وشرحها الكرماني(ت : 786 هـ)، والتبيان لشرف الدين الطيبي (ت: 743 هـ)، والطراز ليحيى ابن حمزة العلوي (ت : 749 هـ)، وعروس الأفراح للسبكي (ت : 773 هـ) والسمرقندية للسمرقندي وهي رسالة في الاستعارات، وتوفي السمرقندي عام 880 هـ.

7- شروح المفتاح للسكاكي.

(أ) شرحه بتمامه المولى حسام.

(ب) وشرح القسم الثالث منه الشيرازي (ت : 710 هـ) في "مفتاح المفتاح". والترمذي وهو معاصر للشيرازي، والخلخالي (ت : 745 هـ)، والسعد (712 - 791 هـ)، والسيد (ت : 816 هـ) في "المصباح" الذي

ألفه عام 803 هـ، وعماد الدين الكاشي، وله رسالة في حل المتشابهات التي أوردها الخطيب على المفتاح، والأبهري سلطان شاه، وطاشكبري زاده (ت : 962 هـ)، وشيخ زاده (ت : 951 هـ) والشربيني (ت: 769 هـ)، والخوارزمي وقد فرغ منه عام 642 هـ، والفناري (ت : 834) وله على شرحي السعد والسيد تعليقات، وابن كمال باشا (ت : 940)، وسواهم.

(ج) واختصر القسم الثالث منه :

المعانيجي (ت: 990 هـ)، والقزويني (666 - 739 هـ)، والإيجي (ت : 756 هـ) في الفوائد الغياثية، وبدر الدين ابن مالك (ت : 686 هـ) في "المصباح في اختصار المفتاح" ونظم "المصباح" المراكشي، ثم شرحه وسماه "ضوء المصباح على ترجيز المصباح" واختصر هذا المختصر ابن النحوية (ت: 718 هـ)، وسماه "ضوء المصباح"، ثم شرحه في مجلدين في كتاب أسفار المصباح عن ضوء المصباح، ولمحمد ابن خضر "مصباح الزمان في شرح المصباح".

هذا وقد ألف السعد "المطول على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني" وانتهى من تأليفه عام 748 هـ، كما انتهى من تأليف مختصر المطول عام 756 هـ .. وفرغ ابن يعقوب من تأليف شرحه على مختصر السعد في مكناسة سنة 1108 هـ ... وانتهى ابن السبكي من تأليف شرحه "عروس الأفراح" على مختصر السعد في جمادى الأولى عام 758 هـ .. وانتهى الدسوقي من كتابة شرحه على مختصر السعد في شوال عام 1210 هـ.

8- وهناك مؤلفات أعقبت هذه المرحلة مثل الرسالة السمرقندية في الاستعارات لصاحبها أبو القاسم بن أبي بكر الليثي السمرقندي[8]، والرسالة السمرقندية من أشهر الرسائل التي ألفت في هذا العلم وقد أقامها على ثلاثة عقود الأول في المجاز والثاني في تحقيق معنى الاستعارة بالكناية، والثالث في تحقيق قرينة الاستعارة بالكناية.

وقد كتب لهذه الرسالة من الشهرة ما جعلها تنال عين الرضا عند كل من وقف عليها من علماء الأمة بعد السمرقندي، فتناولوها بالشرح والتحشية والاختصار والنظم، مخلفين لنا في ذلك مكتبة في الدرس البلاغي الغني مادة وفكرا، والناظر في تاريخ بروكلمان، وفهارس المخطوطات العربية وغيرها يتبين له ذلك.

وسأختصر هنا هذه القائمة :

1. الشروح

- شرح رسالة الاستعارات لعصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه الحنفي الأسفراييني (ت : 951 هـ)، وعلى هذا الشرح حاشية ياسين بن زين الدين العليمي (ت : 1061 هـ) وقد اعتمدهما الصاوي في شرحه التحفة. وهناك حواشي كثيرة جدا. مثل حاشية أحمد فوزي، المسماة الحاشية الجديدة على عصام الفريدة، وحاشية الصبان وحاشية الأنبابي.
- شرح رسالة الاستعارات لعبد الملك بن جمال الدين بن صدر الدين بن عصام الدين الأسفرائيني (ت : 1037هـ).
- شرح محمد بن محمد الدمياطي (ت: 1140) المسمى : أوضح الإشارات إلى رسالة الخواجة أبي القاسم السمرقندي في الاستعارات.
- عقد الدرر البهية في شرح الرسالة السمرقندية (الشرح الكبير) لأحمد بن عبد الفتاح الملوي المجيري (ت:1181هـ)، وكلك مختصر عقد الدرر (الشرح الصغير) للملوي أيضا. وقد أقيم على هذا المختصر غير حاشية شأنه شأن شرح العصام، ومن بين هذه الحواشي التي نجد الإشارة إليها في رسالة الصاوي نذكر :

- حاشية أبي العباس أحمد بن يونس المصري الخليفي (ت : 1209هـ) الموسومة بنتائج الفكر وثمر المؤلفات.

- حواشي محمد بن محمد بن أحمد الأزهري المعروف بالأمير (ت : 1232هـ) وغيرهما.

- نحور الحور العين لأحمد بن إبراهيم بن عبد الله الشرقاوي (ت : 1214هـ)

- زهر الرياض الزكية الوافية لمضمون السمرقندية لعبد الحافظ بن علي المالكي (ت:1303هـ).

2. الحواشي على السمرقندية

- حاشية حسن بن محمد العطار (ت : 1250 هـ).

- حاشية إبراهيم بن محمد الباجوري (ت : 1277هـ) وعليها تعليقات لغير واحد من العلماء.

- حاشية أبي عائشة محمد بن محمد الدمنهوري (ت : 1288 هـ) المسماة بلقط الجواهر السنية على الرسالة السمرقندية.

- حاشية أحمد زين دحلان (ت : 1304هـ)

3. المنظومات

- نظم أحمد بن عبد الفتاح الملوي صاحب الشرحين الكبير والصغير وأول نظمه [الرجز] :

ومفرد المجاز وهو كلمة ... في غير ماهي له موضوعة

وقد شرح الملوي نظمه.

- نظم محمد عياد الطنطاوي (ت : 1278هـ) وأول نظمه [السريع] .

حمدا لربي مانح البيان ... فاتح باب العلم للأذهان.

- نظم محمد عياد الطنطاوي (ت : 1278هـ) مع حاشية على هذا النظم.

4. المختصرات

- مختصر محمود بن حيدر الهكاري (من علماء القرن 11) مع شرح له على هذا المختصر.
- مختصر أحمد الدردير (ت : 1201هـ) الموسوم بتحفة الإخوان في علم البيان، وقد شرحه بنفسه.

وعلى هذا الشرح حاشية الإمام الصاوي المصري (ت : 1241هـ) وعلى حاشية الصاوي تعليقات بعنوان : تبيان البيان لعلي بن حسن البولاقي.

ثم ظهرت في البلاغة كتب الحواشي والتعليقات والتقريرات ... ، ثم جاء العصر الحديث فظهرت عدة مؤلفات في البلاغة فيها لون من التهذيب والتنسيق وحسن الأخذ والاختيار، ثم ظهرت الدراسات اللغوية الحديثة مع ظهور اللسانيات وفروعها المختلفة، وظهور اتجاهات النقد الأدبي الحديث، فأفاد العلماء منها أيما إفادة، فهناك من أعرض عن علم البلاغة القديم وارتمى في أحضان الأسلوبية الغربية وعلم الدلالة والسيميائية بمختلف اتجاهاتها ..، وهناك من بقي محافظا على البلاغة الأصيلة متشبثا بها، وهناك من مزج بين هذا وذاك في الاتجاه التوفيقي.

وجاء بعدها عصر الرقمنة الذي يحتاج إلى إيجاد كفاءات تقوم بحوسبة علوم البلاغة في مكتبات رقمية خاصة توضع بين يدي الطلبة والباحثين، وتغنيهم عن مشقة السفر، وهذا دور مخابر اللغة وعلم المكتبات. وبذلك تنتهي مراحل التأليف في البلاغة منذ نشأتها حتى الآن.

5. المتون والشروح والحواشي والتقريرات

إن الناظر في الدراسة التارخية للبلاغة يتبين له أن التأليف في علومها كان على أشكال متعددة وذلك بعد أن كانت تؤخذ البلاغة من النصوص الأدبية، و هذه الأشكال هي : المتون والشروح والحواشي والتقريرات.

المقصود بالمتن والشرح والحاشية والتقرير [9]

- **المتن :** مصطلح يطلق عند أهل العلم على مبادئ فن من الفنون جمعت في رسائل صغيرة خالية من الاستطراد والتفصيل والشواهد والأمثلة إلا في حدود الضرورة مثل : تحفة الإخوان للدردير .(رسالة في علوم البلاغة)
- **الشرح :** عمل يتوخى فيه توضيح ما غمض من المتون، وتفصيل ما أجمل منها، وهو يتراوح بين الطول والقصر، السهولة والعسر، وفيه الوجيز والوسيط والبسيط، مثل : شرح الدردير للتحفة.
- **الحاشية :** إيضاحات مطولة دعت إليها ظاهرة انتشار المتون والشروح، وقد قصد منها حل ما استغلق من الشرح، وتيسير ما يصعب فيه، واستدراك ما يفوته، والتنبيه على الخطأ، والإضافة النافعة، وزيادة الأمثلة والشواهد، وذلك مثل حاشية الصاوي على شرح التحفة.
- **التقرير :** هو بمثابة هوامش كان يسجلها العلماء والمصنفون على أطراف نسخهم، مما يعن لهم من الخواطر والأفكار على نقطة معينة أو نقاط متعددة، وذلك أثناء قيامهم بالتدريس من الشروح والحواشي، مثل : تقرير البولاقي على الحاشية الصاوية على شرح الدردير.

وهذا النمط من التأليف له عدة إيجابيات وعليه عدة مآخذ.

6. واقع علم البلاغة دراسة وتدريسا ومعوقات تحصيلها

ومما سبق يتبين للمتتبع لمؤلفات المتأخرين في علوم العربية -لاسيما علوم البلاغة التي هي محل الدراسة- أن هذا العلم قد خرج عن الهدف الذي تأسس لأجله في بداية عهده؛ فالدارس قد يعيش مع هذه المؤلفات سنوات طويلة لا يعتدل لسانه ولا يستقيم بيانه، وإذا أردنا أن نعرف الأسباب التي أدت إلى ذلك تبين لنا أن الملكة اللسانية غير علوم صناعة

العربية، ويمكن أن نوجز أهم الصعوبات التي يمكن أن تعيق طالب علم البلاغة لتعلم هذا العلم و تصده عن الحذق فيها منها :

• المطولات

وهذه المؤلفات «تموج بالفروع والآراء والجدل والافتراضات والتأويلات .. التي قد تزيد الأمر عسرا و تعقيدا، إلى جوار الاستطرادات والتنبيهات واللغات»[10]، وهذا التطويل والإطناب وكثرة التفريعات في هذه الكتب يجعلها هدفا لذاتها، ويفوت المقصود منها، وهذا خروج بها عن طبيعتها التي أنشئت لها، ومن جهة أخرى يعسر على المتعلم احتواءها ودراستها كلها، والاشتغال بها إضاعة للعمر، يقول ابن خلدون : «مما أضر بالناس في تحصيل العلوم والوقوف على غاياته، كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يف عمره فيما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد»[11]، أي دون تحصيل تلك العلوم منها، وهذا ما جعل ابن خلدون يعتبر هذه الكتب وإن كانت لها فائدة في كونها تجعل اللسان يمارس اللغة وقت قراءتها، كما أنها مجال علمي واسع للمتخصصين الذين يريدون دراسة البلاغة في حد ذاتها، ولكن تلك التفريعات العقلية والمنطقية قد تكون عائقا وسببا في فساد ملكة اللغة.

• المختصرات

وهي التي تسمى بالمتون، وهي كثيرة جدا، وهذا النوع من الكتب قد يكون عائقا في اكتساب ملكة اللغة، فهي من ناحية تسبب صعوبات علمية وتقنية، ومن ناحية أخرى لا تخضع للمقاييس العلمية مما يجعلها قاصرة عن تحقيق الأهداف المرجوة منها.

• **كثرة التآليف**

فمكتبة البلاغة إذا جمعنا المختصرات والمطولات والشروح والحواشي والتقريرات والتعليقات غنية بمؤلفاتها مع اختلاف الأحجام وطرائق العرض .. وهذا ولا شك من أهم العوائق في اكتساب هذا العلم، ولكن في الوقت ذاته له أهميته في إثراء المعارف لدى المتخصصين.

• **تعدد المذاهب**

إذا كان لعلم النحو مدارسه و مذاهبه فإن للبلاغة مذاهب عند العلماء، وقد ساهمت في توسيع دائرة المؤلفات، والاختلاف في المسائل والمناهج؛ بل إن البلاغة أنتجت فرقا في تاريخ الأمة الإسلامية مثلما نجد في الحديث عن المجاز، والصفات الإلاهية وغير ذلك من المسائل العقيدية .. والمبتدئ يحول بينه وبين اكتساب ملكة البلاغة هذا الاختلاف في المذاهب، فالمسألة الواحدة قد تتعدد الأقوال فيها وتتضارب.

• **تعدد المناهج**

من العوائق التي علقت بعلم البلاغة تعدد المناهج والطرائق في التأليف لتعدد المذاهب والمدارس، فاختلفت بذلك المصطلحات وتكاثرت.

• **الحفظ دون الفهم**

وهو من العوائق أيضا حيث كان التعليم قديما في الجامعات العربية الزيتونة والقرويين والأزهر وجامعات بغداد والشام والأندلس وغيرها، والفكر التربوي فيها يرى أن تعلم البلاغة والإلمام بها أو حفظها لوحدها وترديد قواعدها والتشدق بها كفيل بإتقان ملكة التعبير .. وهذا يشبه بمن يطلب من مهندس معماري ماهر أن يحفظ قواعد وأصول تخصصه أن يبني له عمارة، ثم لا يوفر له من مواد البناء شيئا، أو لا يوفر القدر الكافي .. أو كحال من يحفظ قوانين المرور عن ظهر قلب، لكنه لا يمارس

السياقة العملية، فكيف تكون النتيجة ؟! [12]، فمن غير اللائق أن نطلب من المتعلم التعبير الجيد بناء على محفوظات القواعد الصماء، ويكون في المقابل رصيده اللغوي عاجزا، ومتن اللغة عنده فقيرا، فما ينبغي عليه هو توظيف القواعد و فهمها، لا حفظها عن ظهر قلب، لا سيما ما نجده في المختصرات والمتون القديمة التي لا تعنى بالشواهد الأدبية؛ لكن المتتبع للشروح والحواشي يجدها غنية بالشواهد الأدبية من القرآن والحديث ومن كلام العرب شعرا ونثرا، وهذا يساهم في اكتساب ملكة البلاغة من خلال النصوص.

• التجريد في القواعد

يرى العديد من العلماء المتخصصين في علوم التربية الحديثة أنه ينبغي الابتعاد بالمتعلمين من الولدان عن التجريد ما أمكن، والبلاغة في العصور المتأخرة، صارت قواعد مجردة، واصطلاحات بعيدة عن التطبيق الفعلي للكلام، والتعليم هو تعويد التلميذ على أن يمارس فيما بعد ما تعلمه بنفسه؛ فبقدر ما ترسخ فيه وسائل التعليم التي تعلمها بقدر ما يتحكم في استعماله لها عندما يكبر. والتجريد لا يحقق هذا التعود، بل يحققه التعليم الحسي أكثر، لا سيما إذا تعلق الأمر باللغة، فممارستها وتداولها أدعى إلى ترسيخ الملكة.

هذه جملة من المظاهر والعوائق التي ميزت المنظومة التأليفية في تعليمية البلاغة، أوردتها في محورين رئيسيين هما الجانب التاريخي لتطور التأليف في البلاغة ثم المعوقات الأساسية التي تحول دون حصول الذوق اللغوي عند المتعلم وحاجة "تعليمية اللغة" اليوم إلى إعادة النظر في تحقيق الملكة.

• الإحالات •

1- أبو الفتح عثمان ابن جني : الخصائص، تح : محمد علي النجار، (ج .م.ع:القاهرة، المكتبة العلمية) ج : 1، ص : 275.

2- ابن خلدون، المقدمة (الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون)، تح : ضياء الدين رجب شهاب الدين (الشارقة : دار الفتح، ط : 1،1995م) ص : 768.

3- ينظر : عبد الرحمان عبد علي الهاشمي؛ فائزة محمد فخري العزاوي، تدريس البلاغة العربية رؤية نظرية تطبيقية محوسبة (عمان : دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2005 م) ص : 117.

4- ينظر :مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (الجزائر : مكتبة رحاب، د : ت) فقد بسط القول في هذا الموضوع .

5- عبد الرحمان عبد علي الهاشمي؛ فائزة محمد فخري العزاوي ، تدريس البلاغة العربية رؤية نظرية تطبيقية محوسبة م . س، ص : 117 .

6- الإيضاح، الخطيب القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة «مختصر تلخيص المفتاح، مراجعة : عماد بسيوني زغلول (لبنان :مؤسسة الكتب الثقافية ، ط : 3) المقدمة، بتصرف.

7- عبد الرحمن عبد علي الهاشمي؛ فائزة محمد فخري العزاوي، تدريس البلاغة العربية رؤية نظرية تطبيقية محوسبة، ص :119

8- العالم بالتفسير والفقه الحنفي والبلاغة، وهو من رجال القرن التاسع الهجري، فلقد ولد في النصف الأول منه، ومات بعد سنة 888هـ و من آثاره : حاشية على تفسير البيضاوي، حاشية على المطول للتفتزاني، الرسالة السمرقندية في الاستعارات، شرح الرسالة العضدية للسيد الشريف الجرجاني ..

9- عبد الله بن عويقل السلمي : المتون والحواشي والتقريرات في التأليف النحوي، مجلة الأحمدية : دار البحوت والدراسات الإسلامية وإحياء التراث (دبي : ع : 4، أوت، 1999 م). ص : 249.

10- محمد عيد : الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون (القاهرة : عالم الكتب، دط، 1971) ص : 137.

11- ابن خلدون : المقدمة، ص : 725.

12- ابن حويلي الأخضر ميدني : دور المحفوظ الأدبي في نمو ملكة اللسان العربي لدى المتعلمين (الجزائر : المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة - مجلة المبرز، ع : 19) ص : 39.

• قائمة المراجع •

- الزركلي خير الدين : الأعلام (لبنان :بيروت، دار العلم للملايين ط : 10، 1992)
- أبو الفتح عثمان ابن جني : الخصائص، تح : محمد علي النجار ،(ج .م.ع : القاهرة، المكتبة العلمية).

أبو القاسم بن أبي بكر الليثي السمرقندي (ت : 888 هـ)، الرسالة السمرقندية في الاستعارات (سوريا: دار العصماء، ط : 1، 2005 م).

- أبو القاسم جار الله الزمخشري : أساس البلاغة (بيروت : دار الفكر. د. ط، 2000 م).
- الخطيب القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة «مختصر تلخيص المفتاح، مراجعة : عماد بسيوني زغلول (لبنان : مؤسسة الكتب الثقافية ، ط : 3).
- التفتزاني سعد الدين : شرح تلخيص المفتاح(لبنان : بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط : 1، 2004).
- أحمد مصطفى المراغي : علوم البلاغة (لبنان : بيروت، دار الكتب العلمية ط :3، 1993).
- بهاء الدين السبكي : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح : عبد الحميد هنداوي (بيروت : المكتبة العصرية، ط : 1، 2003).
- حاجي خليفة : كشف الضنون عن أسامي الكتب والفنون (بيروت : دار الكتب العلمية، ط : 1992).
- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (مصر : مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995).
- محمد علي بن علي بن محمد التهانوي الحنفي (ت : 1157هـ)، كشاف اصطلاحات الفنون (لبنان : بيروت، دار الكتب العلمية، ط : 1، 1988 م).
- مصطفى لطفي عبد التواب : علم البيان بين النظرية والتطبيق (بيروت : المكتبة العالمية العلمية).
- عبد الرحمان الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (لبنان : بيروت، دار الجيل).
- عمر كحالة : معجم المؤلفين وتراجم الكتب العربية (سورية : دمشق ، مطبعة الترقي، 1957).
- عمر فروح : تاريخ الأدب العربي (لبنان : بيروت، دار العلم للملايين ط : 04، 1998 م / 1401 هـ).
- عبد الرحمن عبد علي الهاشمي؛ فائزة محمد فخري العزاوي، تدريس البلاغة العربية رؤية نظرية تطبيقية محوسبة.

- ابن خلدون، المقدمة (الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون)، تح : ضياء الدين رجب شهاب الدين (الشارقة : دار الفتح، ط : 1 ،1995 م).
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.
- محمد عيد : الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون.